

الدرس الرابع والعشرون

عصمة الأنبياء.

- ضرورة صيانة الوحي.
- سائر مجالات العصمة.
- عصمة الأنبياء

ضرورة صيانة الوحي

بعد أن أثبتنا ضرورة الوحي كطريق يتوصل من خلاله الى مدركات ومعلومات لازمة تُسدُّ بها نقائص الحس والعقل الانساني، تبرز مسألة أخرى.

فمع ملاحظة أن الأفراد العاديين لا يمكنهم الاستفادة من وسيلة المعرفة هذه، ولا يملكون الاستعداد لتلقي الوحي الإلهي^(١)، لذلك كان من الضروري ابلاغهم الرسالة الإلهية بواسطة أفراد معينين (الأنبياء)، ولكن ما هو الضامن لصحة هذه الرسالة؟ وكيف نطمئن الى أن النبي قد تلقى الوحي الإلهي بصورة صحيحة، وأنه أبلغه للناس بصورة صحيحة؟ وإذا كانت هناك واسطة بين الله والنبي، فكيف نطمئن الى أنها أبلغت الرسالة للنبي بصورة صحيحة؟ ذلك لأن الوحي إنما يكون مؤثراً في سد نقائص المعرفة البشرية فيما لو كان مصوناً - من مرحلة الصدور الى مرحلة الوصول للناس - من أي تحريف أو تلاعب أو تشويه، عمداً أو سهواً، وإلا فإنه مع احتمال السهو والنسيان في الواسطة أو الوسائط، أو تلاعبهم العمدي في محتواه، ستثار في اذهان الناس احتمالات الخطأ والتشويه في الرسالة الواصلة إليهم، وتؤدي هذه الحالة الى تزعزع الثقة بها، والاعتماد عليها. إذن، فمن أي طريق يمكن الاطمئنان الى وصول الوحي الإلهي للناس بصورة صحيحة وسليمة؟

ومن البديهي أنه عندما تكون حقيقة الوحي مجهولة للناس، ولا يتوفر فيهم الاستعداد لتلقيه ومعرفته، فلا يكون هناك اي طريق للمراقبة والاشراف

(١) يقول القرآن الكريم في ذلك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (آل عمران/ ١٧٩).

على الوسائط ليتعرّف على مدى صدقهم. أجل... في صورة واحدة يمكن التعرف على وجود اختلال أو خطأ في الوحي، وذلك فيما إذا كان محتوى الرسالة مخالفاً لأحكام العقل اليقينية، كما لو ادّعى أحد بأنه أوحى له من الله بأن اجتماع النقيضين جائز، أو واجب، أو (والعاذ بالله) أن ذات الله معرضة للتركيب، أو الزوال، فيمكن في هذه الحالة أن نثبت كذب هذا الادّعاء بالاستعانة بحكم العقل اليقيني. ولكن الحاجة الرئيسة للوحي، تتمثل في المسائل التي لا طريق للعقل في الوصول لإثباتها أو نفيها، والتي لا يمكنه - من خلال تقويمه لمحتوى الرسالة - تحديد مدى صحتها وسقمها. إذن، فمن أيّ طريق يمكن أن نثبت - في مثل هذه المجالات - صحة محتوى الوحي، وصيانتها من التشويه والتلاعب والتحريف العمدي أو السهوي؟

الجواب: إنه كما أن العقل، مع ملاحظته للحكمة الإلهية - وفق البرهان الذي ذكرناه في الدرس الثاني والعشرين - يدرك ضرورة وجود طريق آخر، لمعرفة الحقائق والوظائف العملية وإن لم يتعرّف على كنه هذا الطريق وحقيقته، فانه يدرك - أيضاً - أن الحكمة الإلهية تقتضي وصول هذه الرسالة للناس بصورة سليمة وصحيحة، دون أن تتعرض لأي تلاعب وتشويه، وإلاّ لزم نقض الغرض.

وبتعبير آخر: بعد أن علّم أن الرسالات الإلهية، لا بد أن تصل الى الناس من خلال واسطة أو وسائط، حتى تتوفر الظروف والاجواء الملائمة للتكامل الاختياري للناس، وليتحقق بذلك الهدف الإلهي من الخلق، فإنه - وبملاحظة الصفات الكمالية الإلهية - يثبت أن هذه الرسالة يلزم أن تكون مصونة من التشويه والتلاعب العمدي والسهوي، ذلك: لأن الله تعالى لو لم يرد وصول الرسالات بصورة صحيحة الى العباد لكان هذا مخالفاً للحكمة، والإرادة الإلهية الحكيمة تنفي ذلك وإذا كان الله لا يعلم عن أي طريق أو أي شخص يبلغ رسالته، لتصل سليمة الى عباده فهذا ينافي علم الله اللامتناهي، وإذا لم يقدر على اختيار وسائط صالحة لحفظها وصونها من شرور الشياطين، فإن هذه الحالة لا تتلاءم وقدرته اللامحدودة.

إذن فمع ملاحظة أن الله عالم بكل شيء لا يمكن أن نحتمل عدم علمه بأخطاء الوساطة التي يختارها^(١)، ومع ملاحظة القدرة الإلهية غير المحدودة لا يمكن أن نحتمل عدم قدرته على صيانة وحيه من تلاعب الشياطين، وتأثير عوامل السهو والنسيان فيه^(٢)، ومع ملاحظة الحكمة الإلهية، لا يمكن أن نتقبل أنه لا يريد حفظ رسالته من الخطأ^(٣)، إذن فالعلم والقدرة والحكمة الإلهية كلها تقتضي وصول رسالته بصورة سليمة وصحيحة الى عباده. ومن هنا تثبت صيانة الوحي بالبرهان العقلي.

وبذلك - أيضاً - تثبت صيانة مَلَكٍ أو ملائكة الوحي والأنبياء في مجال تلقى الوحي، وكذلك تثبت عصمتهم من الخيانة العمدية، أو من السهو والنسيان، في مجال إبلاغ الرسالة الإلهية.

ومن هنا يتضح لنا السبب في تأكيدات القرآن الكريم على أمانة مَلَكٍ الوحي، وقدرته على حفظ الأمانة الإلهية، ودفع تأثيرات الشياطين وأمانة الأنبياء، وبصورة عامة يتضح مما ذكرناه تأكيده على صيانة الوحي والحفاظ عليه حتى وصوله للناس^(٤).

سائر مجالات العصمة

إن العصمة التي أثبتناها بالبرهان السابق للملائكة والأنبياء (ع) مختصة بمجال تلقى الوحي وإبلاغه، وهناك مجالات أخرى للعصمة لا تثبت بهذا

-
- (١) يقول القرآن الكريم في ذلك: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الانعام/١٢٤).
 - (٢) يقول القرآن المجيد في ذلك: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (الجن/٢٦ - ٢٨).
 - (٣) ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال/٤٢).
 - (٤) الشعراء/١٩٣، والتكوير/٢١، والأعراف/٦٨، والشعراء/١٠٧ و ١٢٥ و ١٤٣ و ١٦٢ و ١٧٨، والدخان/١٨، والتكوير/٢٠، والنجم/٥، والحقاقة/٤٤ - ٤٧، والجن/٢٦ - ٢٨.

البرهان ويمكن تقسيمها الى ثلاثة أقسام:

أحدها: مرتبط بعصمة الملائكة.

وثانيها: مرتبط بعصمة الانبياء.

وثالثها: مرتبط بعصمة بعض الافراد أمثال الأئمة المعصومين (ع)،
ومريم وفاطمة الزهراء (سلام الله عليهما).

ففي مجال عصمة الملائكة: يمكن البحث في مسألتين غير تلقى
الوحي وإبلاغه:

إحدهما: عصمة ملائكة الوحي فيما لا يتعلّق بتلقّي الوحي وإبضاله.

وثانيتهما: عصمة سائر الملائكة الذين لا علاقة لهم بالوحي، وإنّما هم
مكلفون بالرزق وكتابة الأعمال أو قبض الأرواح وغيرها.

وكذلك حول عصمة الأنبياء فيما لا يتعلّق برسالتهم، يمكن البحث في
مسألتين:

أحدهما: عصمة الأنبياء من الذنب والمعصية.

والأخرى: عصمتهم من السهو والنسيان.

وهاتان المسألتان يمكن البحث فيهما بالنسبة لغير الأنبياء أيضاً.

أمّا المسائل المتعلقة بعصمة الملائكة في غير مجال تلقّي الوحي
وإبلاغه، فيمكن معالجتها بالبرهان العقليّ فيما لو تعرّفنا على حقيقة
الملائكة، ولكنّ البحث عن حقيقتها - كما أنّه ليس يسيراً - فهو غير مناسب
لبحث هذا الفصل، ومن هنا نكتفي بذكر آيتين تدلّان على عصمة الملائكة،
وهما الآية (٢٧) من سورة الأنبياء:

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

والآية (٦) من سورة التحريم:

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

وهاتان الآيتان تدلّان بصراحة على أن الملائكة عباد مكرمون، لا
يعملون إلّا بالأمر الإلهي، ولا يعصون أمره، وإن بقي التساؤل حول تعميم
الآيات لجميع الملائكة.

وأما البحث في عصمة بعض الأفراد (غير الأنبياء) فإنه يناسب بحث الإمامة، ولذلك فنبحث هنا في خصوص المسائل المتعلقة بعصمة الأنبياء، وإن كانت بعض هذه المسائل لا يمكن معالجتها إلا بالأدلة النقلية والتعبدية، ولذلك لا بد من دراستها بعد اثبات حجية الكتاب والسنة، ولكن لأجل مراعاة التناسب بين موضوعات المسائل نببحثها في هذا الفصل، ونتقبل حجية الكتاب والسنة كأصل موضوعي نوكل مهمة البحث في إثباته الى موضعه.

عصمة الأنبياء

هناك خلاف بين الفرق الإسلامية حول مدى تنزيه الأنبياء عن ارتكاب المعاصي والذنوب. فالشيعة الإمامية يعتقدون بأن الأنبياء معصومون من جميع المعاصي؛ صغيرها وكبيرها، من حين الولادة حتى الوفاة، فلا تصدر منهم المعصية حتى سهواً ونسياناً، ولكن هناك فرقة أخرى، تذهب الى عصمة الأنبياء من الكبائر فحسب، وبعضهم من حين البلوغ، وبعضهم من حين النبوة. ونقل عن بعض الفرق من أهل السنة (وهم الحشوية وبعض أهل الحديث) أنهم ينكرون عصمة الأنبياء تماماً، ويذهبون الى امكان صدور المعصية منهم عمداً حتى في فترة نبوتهم.

وقبل البحث في إثبات عصمة الأنبياء (ع) تلزمنا الإشارة الى بعض الملاحظات:

الأولى: لا نعني بعصمة الأنبياء أو غيرهم؛ عدم ارتكاب المعصية، اذ من الممكن أن لا يرتكب الفرد العادي معصية خلال عمره كله، وخاصة لو كان عمره قصيراً، بل نعني به توفره على ملكة نفسانية قوية، تمنعه من ارتكاب المعصية حتى في أشد الظروف، وهي ملكة تحصل من وعيه التام والدائم بقبح المعصية، وإرادة قوية على ضبط الميول النفسية، وبما أن هذه الملكة لا تتحقق إلا بعناية إلهية خاصة، لذلك تُنسب فاعليتها الى الله تعالى، وإلا فإن الله لا يمنع الانسان المعصوم عن اقتراف المعصية جبراً، ولا يسلب منه الاختيار، وقد نسبت لله عصمة بعض الأفراد الذين يمتلكون مناصب إلهية كالنبوة والإمامة بمعنى آخر وهو ضمانه - عز وجل - صيانتهم.

والثانية: إنه يلزم من عصمة الشخص ترك الأعمال المحرمة عليه،
كالمعاصي المحرمة في كل الشرائع، والأعمال التي يحرم ارتكابها في
الشريعة التي ينتمي إليها، إذن فلا تنافي عصمة نبي ممارسة العمل الجائز في
شريعته لشخصه خاصة، وإن كان محرماً في الشريعة السابقة عليه، أو سيكون
محرماً بعد ذلك.

الثالثة: المراد من المعصية، التي يُنزه المعصوم عن ارتكابها هي:
العمل الذي يُطلق عليه مصطلح (الحرام) في الفقه، أو ترك العمل الذي
يُطلق عليه (الواجب) في الفقه. وأما لفظة المعصية وما يرادفها أمثال الذنب،
فإنها تُستعمل فيما هو أوسع من ذلك بما يشمل (ترك الأولى) وممارسة مثل
هذه الذنوب لا تنافي العصمة.

الأسئلة :

- ١ - كيف يمكن إثبات صيانة الوحي من أي خلل أو تشويه؟
- ٢ - ما هي مجالات العصمة الأخرى غير مجال صون النبي في تلقي الوحي وإبلاغه؟
- ٣ - من أي طريق يمكن إثبات عصمة الملائكة؟
- ٤ - ما هي الآراء حول عصمة الأنبياء؟ وما هو رأي الشيعة الإمامية في هذا المجال؟
- ٥ - عرّف العصمة، واذكر لوازمها.